أ.ج.گريماس: سنوات التكوين (1)

توماس ف.برودن،

ترجمة رشيد بن مالك،

تلمسان، الجزائر

مقدمة المترجم

لما اقترح علي الأستاذان سعيد بنكراد ومحمد الداهي الإسهام في عدد خاص من مجلة علامات الغراء حول الإنجازات العلمية لگريماس بمناسبة مرور قرن على ولادته، وافقت رأسا لاعتبارات عديدة أولها: يعد گريماس من الباحثين الأوائل الذي أرسوا دعائم التحري العلمي الجماعي من بداية الأربعينيات من القرن الماضي حتى وافته المنية في 1992 . واستطاع بفضل هذه القيمة الأساسية أن يحرك مجموعة من الباحثين التفوا حوله، وانخرطوا في اتجاهات معرفية متنوعة لدراسة التجليات الدلالية في أشكال التعبير المعبر عنها باللسان وغير اللسان، فحققوا طفرة نوعية دفعت باتجاه علمنة الدرس النقدي بوجه خاص. ثانيها : تعتبر هذه الوقفة التأملية فرصة ستفسح المجال للقارئ العربي الاطلاع على الجوانب الخفية في حياة گريماس، واكتشاف المراحل الكبرى في مسيرته العلمية. ثالثها: غالبا ما قدمت الدراسات السيميائية العربية معزولة عن السياق المعرفي الذي شهدته السيميائية في الفكر الأوروبي المعاصر بوجه عام ومدرسة باريس بوجه خاص. نعتبر هذه الدعوة المهمة الموجهة للباحثين العرب لتحضير ملف خاص حول گريماس خطوة أولى لجمع شملهم وبداية حقيقية لحوار علمي يعد الحلقة الأضعف في المشهد السيميائي العربي.

خلاصة: يضم هذا المقال عناصر بيوغرافيا فكرية لـــ أ.ج.گريماس (1917–1992) لازالت في طور الكتابة باللغة الإنجليزية. تعرض هذه المحاولة للدراسات العليا التي تابعها العالِم وتكشف كيف أسهمت في تهيئة حياته الفكرية اللاحقة. يتناول القسم الأول من هذا المقال تكوينه بليتوانيا وفرنسا في السنوات الممتدة من 1930 إلى 1940، وينتهي بإطلاق رحلته العلمية إلى

الإسكندرية. يوضح هذا القسم التقاليد الأكاديمية التي لقنت له وتبرز رأسا الشخصيات والمناهج وكُتَّاب وكتب شبابه التي كان لها تأثير مهم على فكره. ثم ننتقل إلى المناقشة التي تقترح توليفة لتجاربه الواسمة الثلاثة عقود الأولى من حياته؛ ومن شأنها أن تصمم مسيرته المستقبلية التي ترسم تطور بحوثه. وقد أدت أربعة تقاليد ثقافية دورا مهما في تطور گريماس: الليتوانية والسلافية والجرمانية والفرنسية. من جهة أخرى، أولى اهتماما خاصا بالشعر، والعصر الوسيط، والفلسفة، والتاريخ، والحداثة والفيلولوجيا. وتلخص الخاتمة العلاقات بين تكوينه الأكاديمي وأعماله العلمية. وإذا كانت الدلالية والسيميائية اللتان بلورهما گريماس مقترنتين اقترانا كبيرا باكتشافاته واللقاءات التي نظمها بعد نهاية دراساته، فإن هذه الأخيرة حددت بوضوح الطريقة التي صمم بها مشاريعه فميزها على هذا النحو عن المقاربات المنافسة في هذه المجالات.

مقدمة

تضم هذه الدراسة عناصر مونوغرافيا باللغة الإنجليزية هي في طور التحرير، وتعالج حياة أ.ج.گريماس (1917–1992) وأفكاره بوضعها في سياقها الفكري والثقافي والتاريخي (2). سيتوسع الكتاب في البحوث التي قادها العالِم في مجالات المعجمية التاريخية والمعجماتية والدلالية اللسانية والسيميائية والميثولوجيا المقارنة. ويتتبع تطور مقارباته مسارا يبرز التحولات العميقة التي مست العلوم الإنسانية خلال القرن الماضي. يشدد الكتاب أيضا على الإسهامات التي طورها گريماس مع باحثين آخرين نذكر من ضمنهم ر.بارث، م.دي سارطوM.de Certeau، ر.جاكوبسون ك.ليفي شتراوس وبول ريكور. ولئن كنا نملك الكثير من المونوغرافيات المخصصة لعدد قليل من مفكري هذه الحقبة (ر.بارث، ج. دولوز م. فوكو الخ.)، فإننا لا نلقى ولو كتابا واحدا إلى يومنا هذا عالج مؤلفات گريماس ومسيرته العلمية بشكل تام وموسع. وإذا عملنا على إبراز هذا العالِم وقارنا أعماله بتلك المقترنة بباحثين آخرين من أوروبا وأمريكا، فإن الدراسة تسهم في بناء تاريخ ثري جدا بالأفكار منذ 1945، وفي إعادة تعريف العلاقات بين التقاليد الفكرية من جهتي المحيط الأطلسي. تستوحي المونوغرافيا الآفاق التي تفتحها بعض البيوغرافيات الفكرية الحديثة العهد على غرار تلك التي أعدها أ.رودينيسكو E. Roudinesco حول لاكان، وفرنسواز

دوس Francois Dosse حول بيار نورا Pierre Nora وبينوا بيترس Benoit Peeters حول ديريدا Derrida .

إن أغلب الأعمال الفرنكوفونية في مجال تاريخ علوم اللغة تَتَرَكَّزُ حول التفكير الإبيستيمولوجي. وهذا الكتاب الذي لا يزال في طور الإعداد، وسيوجه إلى القراء المتعددي التخصصات، يتبنى المقاربة الأنجلوساكسونية الممحورة على العرض الواضح للمناهج والنظريات، وعلى البيوغرافيا وتاريخ ودراسة المؤسسات. وستشير المونوغرافيا إلى الظروف التي حولت توجه التطور الفكري لـــ گريماس، وتستحضر اللقاءات التي جاءت نتيجة للمصادفة وتبين أنها حاسمة، وتشدد على الدور الذي تؤديه المؤسسات حيث كان يُدَرِّسُ. وفضلا عن المنشورات الأكاديمية والتجارب الشخصية، ستستند هذه الدراسة على البحوث التي اشتغلت بالأرشيف والمراسلات واللقاءات مع گريماس ومعاصريه. وتنهض أيضا على المعلومات المستقاة من النصوص المكتوبة باللغة الليتوانية، ولا سيما في العديد من المقالات التي نشرها گريماس.

يعالج هذا المقال حقبة تكاد تكون مجهولة من حياة گريماس،لاسيما تلك المتعلقة بشبابه. تتعرض هذه المحاولة لدراساته العليا، وتكشف كيف أسهمت في تهيئة حياته الفكرية، والنقطة التي بلغتها حتى انتهت إلى مرحلة النضج. يعرض القسم الأول من هذا المقال لدراساته الجامعية بليتوانيا، وفرنسا في المرحلة الممتدة من 1930 إلى 1940، وتنتهي في اللحظة التي بدأ فيها اللساني مسيرته بمصر. يقترح القسم اللاحق توليفة لتجاربه التي وسمت الثلاثة عقود الأولى من حياته، وتتتبع مسارها في تطور بحوثه. يحيط هذا المقال بالتقاليد الأكاديمية التي اكتسبها من التعلم، ويستند في كل ذلك إلى الأشخاص، والمناهج، والكُتَّاب، وكتب شبابه التي كان لها تأثير هام في فكره. إن بعض الدروس التي حفظها بشكل مبكر أكسبته كفاءات نقدية فيما بدا البعض الآخر منها عديم الفائدة. تلخص الخاتمة العلاقات بين تكوينه الأكاديمي وبحوثه اللاحقة؛ وقد تم التشديد فيها على الطريقة التي أثرت بها دراسات گريماس في النهج الذي تصور به الدلالية والسيميائية، وميزت مشاريعه عن المقاربات الأخرى في هذه المجالات.

0.1 دراسات في الحقوق بكوناس(1934-1936)

في جوان 1934، نجح گريماس في امتحانات نهاية دراساته بالمعهد الرياضي ريجيسكيو جونو RygiškiųJono بـــ مارجامبولي Marijampolė في ليتوانياLituanie، وهو مؤسسة منغمسة في التقاليد الجرمانية. وقد كافأه أبوه على هذا النجاح بإهدائه مؤلفات نيتشه Nietzsche باللغة الألمانية. وخلال خريف 1934،سجل ألجيرداس بجامعة فيطوطاس مانيوس دي كوناس Vytautas Magnus de Kaunas، عاصمة البلد ما بين الحربين. فهو يتذكر أن وضعيته لم تفسح له المجال لاختيار تخصصه: "لم أستطع دراسة الفلسفة أو الرياضيات كما كنت أرغب بعد تخرجي من الثانوية لأن التكوين طويل جدا ومكلف جدا. فواصلت إذن في الحقوق[...] كانت الدروس مبرمجة بعد الظهر وفي المساء، وما تبقى من الوقت خصصته للعمل(3). التحق بكلية الحقوق واختار نهجا ممحورا على المواد القانونية.

تابع گريماس في السنة الأولى دروسا في القانون العام، وتاريخ القانون الليتواني، والقانون الروماني، والاقتصاد السياسي، والتاريخ الاجتماعي للعالم الفلاحي، وعلم النفس، واللغتين الألمانية والروسية(4).اشتغل أيضا بمكتب مُوَثِّق مدينة كوناس. في السنة الثانية، كان يدور أكثر من نصف البرنامج حول التجارة والاقتصاد، ومنها سداسيان تدرس فيهما المالية والآخران الإحصائيات. ويتذكر أنه درس ماكس فيبر وفلسفة قانون هانس كيلسن (5)Hans Kelsen.

على أن گريماس التقى، خارج المنهج الدراسي المخصص للحقوق، بالأستاذ في كوناس الذي أثر فيه تأثيرا قويا. سجل ألجيرداس كمستمع حر في درس حول الفلسفة المسيحية القروسطية كان يلقيه ليف ب. كارسفينLev P. Karsavine، ميتافيزيائي ومؤرخ في فلسفة الأديان عين أستاذ كرسي في التاريخ العالمي ونشر العديد من الأعمال (6). وقد قال گريماس فيما بعد عن هذا الأستاذ الذي ينحدر من سان بيترسبورغ Saint-Pétersbourg:" كان أكثر أناقة وصراحة من الباحثين، لم يسبق لي أن التقيت بمثله أبدا" (7). ولئن عمل كارسفين في بداية تدريس الفلسفة الدينية على تجلية المسائل التاريخية والأنثربولوجية، فإنه تبنى في العشرينيات من القرن الماضي، مقاربة على قدر كبير من التنظيم، وبذل ما في وسعه للخروج بتوليفة تجمع ما بين الميتافيزيقا السكولاستيكية والنهضة والحقبة المعاصرة. ويتذكر گريماس هذه الدروس التي

ولدت لديه هوى مستديما للعصر الوسيط وألهمته أناقة اللغة الليتوانية التي كانت تلقى بها (8). إن كارسفين وأغلب أساتذة الحقوق بكوناس دَرَسُوا بسان بيترسبورغ، وفي ألمانيا وفرنسا أيضا، وهذا ما سمح لگريماص ببناء عُدَّة صلبة من التقاليد الفكرية القارية، والسلافية بوجه خاص.

في أوقات الفراغ، كان يخصص گريماص مطلع النهار لالتهام ليون تروتسكي Léon Trotski وكورزيو مالابارط Curzio Malaparte، وأوسوالد سبينجلر Oswald Spengler ويوهان ويزنگا Johan Huizinga أيضا. لقد ساهم هذان الأخيران في تشكيل رؤيته للتاريخ، وهو مجال سيتخذ قاعدة لبحوثه في العقود الأولى من مسيرته العلمية (9).كان يمضي أمسياته مع طلبة آخرين في قراءة واستظهار القصائد من ضمنها تلك التي كتبها كازيس بلينكيس KazysBlinkis، شاعر شعبي أدخل الحداثة والمستقبلية إلى ليتوانيا خلال الحربين (10). وقد اكتشف كريماص أيضا شابا آية في الغنائية اعتبره أكبر شاعر ليتواني في حقبته: هانريكاس رادوسكاس(**11**) HenrikasRadauskas.

حتى وإن أجرى گريماص تسجيلاته في بداية السداسي الخامس من الليسانس، فإنه لم يتمم أبدا تكوينه في الحقوق، وانتهى به الأمر إلى الحصول على شهادته بفرنسا، مما هيأه ليصير مواطنا في هذا البلد ومواصلة مسيرته العلمية فيه. ولئن أقر، في مقابلة يعود تاريخها إلى 1991، بأنه "يهتم بكل شيء ماعدا الحقوق" (12)، فإنه يفسر هذا التوجه الجديد على أنه جاء نتيجة للاتجاهات الجيوسياسية العالمية:" كيف صرت فرنسيا بعد ذلك، يعود الفضل لـــ س. هيتلر M. Hitler. وهيتلر هو الذي قرر ابتزاز ليتوانيا برفضه المطلق للتصديرات. واقتضى هذا الأمر إذن إصلاح الاقتصاد الليتواني والسياسة العامة والالتفات إلى فرنسا" (13). في 1936، عرضت الحكومة منحا ترخص للطلبة الذهاب إلى فرنسا، والنمسا وإنجلترا وإيطاليا وحتى إلى ألمانيا (14). في رسالة، بتاريخ 24 سبتمبر 1936، موجهة إلى نائب الوزير الليتواني في التربية، طلب گريماص مساعدة مالية "لدراسة علم الاجتماع أو الفلسفة بالخارج"(15). وفي أكتوبر، وصل إلى غرونوبل.

1.1دراسات في الفيلولوجيا والعصر الوسيط بـــ غرونوبل (1936-1939)

لم يكن گريماص عند وصوله إلى فرنسا، يتكلم كلمة واحدة باللغة الفرنسية(16). سجل في كلية الآداب بغرونوبل، وهي مؤسسة كانت تيسر دائما استقبال الطلبة الأجانب. وخلال السنة

الأولى، تابع دروسا مخصصة للأجانب تضع في صدارتها تعلم اللغة والمفاهيم الأساسية للثقافة وتيارات الفكر والأدب المعاصر والمؤسسات الفرنسية(17). وحضر أيضا درسا جامعيا في علم النفس.

وقد درس هذه السنة اثنا عشر ليتوانيا بغرونوبل، من ضمنهم جوناس كوسو ألكسندرفيسيوس Jonas Kossu-Alexsandravičius (جوناس إيستيسJonas Aistis)، مواطن مسن، بدأ هو أيضا في تحضير الليسانس. لما أخبره گريماس في أثناء لقائهما الأول أنه يريد دراسة الآداب الفرنسية، أجابه: "لا ينبغي أن تكون أبله بدراسة الأدب[...] لا نتعلم هذا في الجامعة[...] ركز جيدا على اللغة؛ ستحتفظ على الأقل بشيء ما مفيد". يتذكر كاتب **الدلالية البنيوية**Sémantique structurale بأن الشاب الرومانسي الذي كان :" يحلم بالآداب الجميلة"وعاقدا العزم على " اكتشاف المبادئ الفلسفية والآداب الجميلة، في العمق، للوقوف عند معنى الحياة" قرر في هذه الآونة أن يكون لسانيا؛ "مصير حياة، مسطر" في لحظة (18).

ويرجع الفضل الكبير في هذا التحول من دراسة الآداب إلى علوم اللغة إلى "مدرس بارز" علم گريماس "الصوتيات التطبيقية والصوتيات التجريبية" في 1936–1937، وكان يقدم دروسا في اللسانيات متقدمة جدا خلال السنتين التاليتين (19). يقول ألجيرداس فيما بعد:" تعرفت على أنطونين ديرافورAntonin Duraffour بغرونوبل؛ أستاذ بأتم معنى الكلمة وعالم موهوب في علم اللهجات، متخرج من لايبزيغ Leipzig. علمنا اللسانيات بمناهج بروسية حقة: الفيلولوجيا التقليدية القديمة للقرن التاسع عشر، الراسخة والمشبعة بعرق أجيال عديدة من الباحثين" (20). وبعد أن تلقى تكوينا وفق مفاهيم النحويين الجدد بالعاصمة الفكرية للسانيات التاريخية، على غرار سوسير، وويتناي Withney وبلومفيلد قبله، اصطنع ديرافور لنفسه سمعةَ متخصص في الصوتيات ومورفولوجية اللهجات الرومانية، لاسيما الفرنسية– البروفانسية. يعترف گريماس بأن دروس ديرافور فسحت له المجال ليتعلم إجراء "تحاليل مفصلة للنصوص، ويتصور الطبيعة النسقية للغة والظواهر الاجتماعية بعامة"، وألهمته "احترام النص، واحترام المرجعية وفكر الآخر"(21).

وعلى غرار الكثير من الفيلولوجيين المُكَوَّنِينَ في اللسانيات المقارنة والتاريخية، مثل شليشر Schleicher وسوسيرSaussure ويالمسليف Hjelmslev، فإن ديرافور دَرَسَ الليتوانية التي تعد لغة

هندوأوروبية غارقة في القدم ولازالت مستعملة. وكان يقرأ في كل صبيحة صفحة من الليتوانية، وصار صديقا لمجموعة من الطلبة القادمين من كوناس (22). يتذكر گريماس أن ديرافور أمر تلامذته بالحفاظ على مسافة مع "البنيويين" الذين انحرفت نظرياتهم اللسانية المجددة المستوحاة من الأمير نيكولا تروبيتزكوي Nicolas Troubetzkoy ويتذكر أيضا أن الأستاذ العلامة والبارد الطبع كان يسميه بكل بساطة "المغفل" في محاضراته (23).

أخذ بحث ديرافور، سنة قبل وصول گريماس، منعطفا جديدا في أثناء تحرير كتاب بالتعاون مع إثنوغرافي(1935). إن محاولة ديرافور مستوحاة من متخصصين في اللغات الرومانية ذوي جنسية سويسرية: المتخصص في علم اللهجات لويز گوشا Louis Gauchat، الجغرافي اللساني جول جيلييرونJules Gilliéron، وعلى وجه خاص كارل جابيرغ Karl Jaberg ويعقوب جودJakob Jud من جامعة زوريخ Zurich أتباع مقاربة WörterundSachen("الكلمات والأشياء") الذين أجرى ديرافور معهم مناقشات عديدة(24). لقد قام جابيرگ وجود Jud بأعمالهما الميدانية في مناطق جغرافية محددة بدقة، واستعملا، بعد ذلك، المعطيات المستقاة لتحليل التقلبات والتغيرات اللسانية، والتحري عن النقاط الدلالية أيضا التي غالبا ما كانت تهمل، بالتشديد على أهمية الروابط المعقدة بين المعجم والمجتمع والثقافة المادية(25). توضح دراسة ديرافور معنى وتأثيل المفردات الخاصة بسكان المنطقة الريفية بجنوب بريس Bresse لما يتكلمون عن مزرعتهم وأدواتهم ومحيطهم الطبيعي. وقد اعترف گريماص لاحقا، وهو متأثر، بأنه انخرط في حركة WörterundSachen لما كان تلميذا لديرافور(26).

بعد مضي سنة من الدراسة، نجح ألجيرداس في امتحانات علم النفس الاستدراكية في الخريف، ويتذكر أنه من أجل هذا الامتحان "حفظ برغسون عن ظهر قلب"(27). وخلال السنتين اللاحقتين، تحصل على شهادات الصوتيات والفيلولوجيا الفرنسية والدراسات القروسطية الفرنسية، ثم على شهادة الليسانس في الأدب بتاريخ 20 جوان 1939. وفي أثناء تسجيله الأول بكلية الآداب في خريف 1936، ترك گريماص الخانة "نظام الدراسة المتبع" فارغة، في نوفمبر 1937، كتب عليها "فيلولوجيا" وفي 1938 "دراسات قروسطية".

إن الحقبة التي أمضاها ألجيرداس بفرنسا ساهمت في تكوين وجه آخر من التماعاته الذهنية، التقاليد الرومانية التي ستغدو عنده مستقبلا نظاما مرجعيا مهما. سواء تعلق الأمر بدراساته أو أوقات فراغه، كان گريماص يلتهم موبسان Maupassant، ويسبح في مؤلفات الشعراء الرمزيين الذين اكتشفهم في الثانوية؛ فيستظهر أبيات بودلير وريمبو وفيرلين (28) . وفي حدود هذه الحقبة، ساهمت قراءة روايات ستاندال ومالرو، ودوستيوفسكيDostoïevski وفولكنير أيضا بطريقة مهمة في بناء حياته العاطفية، أخلاقياته وأذواقه (29). وكان يقرأ لبعض الكتاب الأجانب الآخرين الذين مارسوا عليه تأثيرا مستداما: أونامونو Unamuno ومحاولته **الإحساس المأسوي للحياة**، ويليام بوتلر ييتس William Butler Yeats وإدگار ألان بو Edgar Allan Poe ولا سيما قصائده "Annabel Lee " و"Ulalume" و"الغراب" (30). وقد غذت أحاديث مطولة بغرونوبل مع كوسو Cossu، والشاعر والمترجم ألكسيس شورجيناس AleksysChurginas، ورادوسكاس Radauskas لاحقا معارف وأحاسيس گريماص الفنية، بينما صمم له شورجيناس إطارا تاريخيا واسعا لفهم الثقافات (31) ومتح أيضا من المناقشات المطولة مع كوسو وشورجيناس و، سنوات عديدة فيما بعد، مع هانية لوكوسكيتي HaniaLukauskaité وطوماس سطونيس Tomas Stonis بسيوليي Šiauliai، تصورا جيدا للثقافة السلافية. وحدثه أصدقاؤه، بوجه خاص، عن الشعراء الحداثيين مايكوفسكي Mayakovsky وبلوك Blok ويسنين Yesenin وكذلك الكتاب والمؤلفات الدولية من بينها Faust لجوته Goethe و Peer Gynt لـــ إيسبن Isben وBenvenuto Cellini لـــ بو Poe وولت ويتمان (32)Walt Whitman.

وبعد نهاية دراسات الطور الأول، بلور گريماص بمساعدة دورافور موضوع أطروحة دكتوراه في اللسانيات التاريخية واللهجية. واستهدف هذا العمل تحليل أسماء الأماكن في واد گريزيفودان Grésivaudan الذي يمتد من غرونوبل إلى ألبرفيل Albertville. وكانت ترمي هذه الدراسة إلى ضبط الإبداعات والتحريفات المعللة بالأمواج السكانية المتتالية، من شعوب ما قبل السلتية إلى الرومانيين مرورا بالسلتيين، والجرمانيين والمنحدرين منهم(33). ولكن هذه الدراسة علقت(34)، بما أن مسيرة گريماص تعكرت من جديد بفعل "هيتلر" والأحداث السياسية الدولية.

في مارس 1939، استولت ألمانيا على سيادة الإقليم الليتواني لـــ كليبيدا Klaipéda (ميمل Memel)؛ وجسد رمزية هذا الفعل وصول هيتلر نفسه إلى ميناء كليبيدا. وبعد شهر، يدين الرايش الثالث الاتفاق الثنائي القاضي بعدم الاعتداء الذي وقعه مع بولونيا، الجار الآخر لجنوب ليتوانيا. وفي ربيع 1939، بدأت حكومة كوناس في تحضير البلد لنزاع محتمل بتجميع القوى العسكرية المحدودة التي في حوزتها.

2.1 المدرسة العسكرية(1939-1940)

بعد أسبوعين من حصوله على شهادته من غرونوبل، وجد گريماص نفسه ضمن أربعمائة شاب مدعوين من لجنة وزارة الدفاع باعتبارهم طلبة ضباطا في الجيش الليتواني. وقد عينته الأكاديمية العسكرية لكوناس في السرية الأولى من المشاة وأرسلته في مركز تدريب "لاكتساب كفاءات الجندي الشاب"، وهذا يمثل مسارا تربويا مختلفا بشكل ملموس عما تصوره في الدكتوراه (35). لم ينفرد گريماص، وهو طالب ضابط، برأي فاصل حول دروس الاستراتيجية التي تخصصها المدرسة لأولئك الذين يصيرون ضباطا في خدمة الجمهورية. وقد اشتكى فيما بعد من أنه "بدلا من أن نُعطى نوعا واحدا من الحرب الممكنة، نعني بها الثورة الوطنية، أضجرنا العقيد بقصص نابليون وسخر من جنود الحرية، من دون أن يعرض أبدا خطة عمل واقعية"(36).

بعد مرور سنة من بداية تكوينه كضابط، ضمت روسيا ليتوانيا، وأدمجت جيشها في الهيئة الإقليمية التاسعة والعشرين لقناصي الجيش الأحمر؛ العمال والفلاحين(37). لقد أرسى النظام الجديد منظومة إعادة تربية إيديولوجية منظمة: تم إرسال مفوضي الشرطة السياسية التابعة لـــمفوضية شرطة الشعب للشؤون الداخليةNKVD، وهي منظمة ظهرت قبل مجيء اللجنة لحماية الدولة KGB، لتخصص، يوميا، دروسا في الماركسية – اللينينية(38). إن الأصدقاء والطلبة الذي عرفوا گريماص في الأربعينيات من القرن الماضي يؤكدون معرفته بالمادية التاريخية والجدلية(39)، حتى وإن لم يتضح أن هذا الدرس المكثف والإلزامي يعد سببا في ذلك. ويتذكر گريماص أن سريته كانت تنجح بانتظام في طرد الضباط السوفيات(1982). أنهى ألجيرداس تكوينه في أكتوبر 1940، وعين ملازما احتياطيا على غرار كل أصدقائه الذين استدعاهم النظام "البرجوازي" القديم وكونهم (40).

3.1 دراسات الدكتوراه بباريس ورحيله إلى مصر(1946-1950)

نجا گريماس من الحرب وخمس سنوات من النظام السوفييتي والنازي. وشد الرحال إلى ليتوانيا قبل أن يستولي الاتحاد السوفييتي من جديد على السلطة. وبباريس وفي خريف 1945، اتصل بـــ جورج ماطوري Georges Matoré الذي كان يحضر أطروحة في الفيليلوجيا الفرنسية بجامعة السوربون Sorbonne تحت إشراف شارل برينو Charles Bruneau. ولئن كان هذا الأخير ملزما بإنجاز **تاريخ اللسان الفرنسي** لفرديناند برينوFerdinand Brunot، فإنه وزع على طلبته المسجلين في الدكتوراه موضوعات حول مفردات القرن التاسع عشر. أقنع ماطوري گريماص بتحضير دكتوراه في اللغة الفرنسية تحت إشراف شارل برينو الذي اقترح عليه موضوعا حول الموضة في عهد الاستعراش. انضم گريماص رأسا إلى المشروع الذي سعى ماطوري من خلاله إلى التوسع في المعجمية الفرنسية الجديدة المحورة على الاجتماعي، مشروع انضم إليه زميلهما في الدراسة الشاب بيرنار كيمادا Bernard Quemada في 1946.

يتذكر گريماص أنه تابع "بعض المحاضرات لشارل برينو" بالسوربون و"منتدى أو منتديين لماريو روك Mario Roques (متألق ومهذب)" بكوليج دي فرانس (**41**) Collège de France. لقد تفادى تعليم گوستاف گيوم Gustave Guillaume بمدرسة الدراسات العليا، ولكنه شارك بهذه المدرسة في محاضرة قدمها روبير ليون فاغنير Robert-Léon Wagner، وبهذه المناسبة قرأ لأول مرة سوسير (42). تأتي اكتشافاته البالغة الأهمية من قراءاته الخاصة ومناقشات أجراها مع مجموعة غير رسمية من الطلبة المسجلين في الدكتوراه الذين كانوا يجتمعون بانتظام عند ماطوري (43). وكان روك وبرينو وماطوري يدرسون له مبادئ المعجماتية الضرورية لإنجاز بحوث معجمية.في 1947،حمل روك گريماص على الانتساب إلى المركز الوطني للبحث العلمي(CNRS)كمتربص بحث لإثراء جرد المفردات الفرنسية التي بلورها منذ عشر سنوات. واستدعى الأمر مسح النصوص التي عينها له روك لاستنباط استعمالات الكلمات الدالة من زاوية تاريخ المفردات: تأريخات جديدة، تعاريف خطابية أولى للكلمة، توسعات المعنى أو الاستعمال، الخ. وخلال عشر سنوات، أبرز في شكل مقالات قوائم الكشوفات القاموسية المبلورة في إطار بحوثه الخاصة (44).

تصف الأطروحتان اللتان ناقشهما گريماص في 1948 المزينات الأنيقة في العشرينيات من القرن التاسع عشر، وتُحللان اللفظات الوصفية والمُقوِّمة التي تحيل عليها، وتناقشان الظواهر الاقتصادية، والاجتماعية، والأخلاقية التي تمارس تأثيرا حاسما في هذا المجال. إن **الموضة في 1830**، وهي الأطروحة الأساسية، تحصي وتحلل أكثر من ثلاث آلاف لفظة مستقاة من خلال مسح مدونة واسعة من صحف الموضة، المُكَمَّلة بكتيبات حول الفن، ومذكرات وكراسات السفر، والروايات والمحاولات. وتوضح الأطروحة الثانية كيف أدت الرومانسية والأنجلومانية والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي جاءت بها **الثورة** والثورة الصناعية، دورا متميزا في تشكيل المعجم المدروس. حتى وإن كانت الأطروحات تطبق بعض المبادئ المبلورة في أثناء الاجتماعات عند ماطوري، فإن گريماص وضح لاحقا أن هذه "المؤلفات التي جاءت تحت الطلب" لا تعكس أفكاره الخاصة في تلك الحقبة حول المنهجية المعجمية والتي كانت في أقصى درجة الغليان والتطور(45).

وفي أثناء تحضير الدكتوراه، شرع گريماص في تحرير بعض المقالات مع ماطوري التي تحدد وتبرز اقتراحاتهما المعجمية الجديدة المستوحاة من روك وبرينو وجوست تريي Jost Trier **والحوليات**، ومن خلفيات موسMauss ومييي Meillet ودوركايم. وقد ظهر بيانان يحثان على التفكير النظري، ويشددان على الطابع الاجتماعي للمشروع ويوصيان بالبحث الجماعي والتشاوري (1948، 1950). وتؤكد هذه المقالات المستوحاة من روك على أن تاريخ المفردات لا يمكن أن يتأسس على القواميس المعيارية، بل يستوجب، من باب أولى، القيام بالمسوح المهمة للنصوص المتنوعة والممثلة للاستعمال. وعطفا على برينو، فإن گريماص وماطوري يدافعان عن مقاربة تَحِيدُ عن أسلوبية المؤلفات الأدبية الكبيرة لتشدد على الطابع الاجتماعي للغة: تضم المفردات مجموعة من التمثلات الجماعية المتولدة عن المجتمع الملموس في حقبة معينة (حرف، مهن، ممارسات، معتقدات، حساسية، الخ.). يميل الكاتبان إلى تبني الادعاء بأن مفردات حقبة تشكل كلا متجانسا، توليفة في تطور تنتظم إلى "حقول لغوية" موطدة بـــ"كلمات–شواهد". "كيف نعرف المفردات؟ هي مجموعة من الكلمات العضوية تخضع للتراتب وتعبر عن حالة حضارية معينة(46)".

لما سلم أطروحتيه إلى مديريه في ربيع 1948، شرع گريماص في كتابة مقال مع ماطوري حول التصور الرومانسي لـــ الفن للفن، وتوسع ليصير مشروع كتاب حول تحول مفاهيم الفن والفنان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد شددت الأطروحة الثانوية سلفا على:"ما هي المسافة التي تفصل الفنان في نهاية القرن الثامن عشر، حيث إن التسمية مرادفة على وجه التقريب لـــ "الحرفي الماهر"، عن فنان 1830 الذي،[...]، وإن كان يملك القدرة على فعل كل شيء، يكتفي بـــ"التعاطي المتقن مع الفن من أجل الفن نفسه"(47). في سبتمبر 1949، يعلن گريماص أن " الدراسة الجارية، التي تشكل كتابا مجلدا يقع في 300 صفحة على وجه التقريب، ستنجز خلال السنة الدراسية 1949-1950 (48) .

على أن گريماص، باعتباره غير مُبَرَّز وأجنبيا، أُرغِم على متابعة مسيرته الجامعية خارج فرنسا. فتحصل على أول منصب ليلتحق بجامعة الإسكندرية في خريف 1949. ولما كانت هذه المدينة لا تتوفر على مكتبة شبيهة بتلك القديمة أو الحالية، فإنه عدل عن بحوثه المعجمية المتبحرة. ومع ذلك، فإنه عثر على موسوعة ديدرو وألمبير Alembert، فشكل مدونة من الصفات التي تميز عبارة "ريشة الفنان"، ثم حاول تحليل الكلمات بوصفها مجموعة مبنية مستوحاة من الفونولوجيا. وسيفسر فيما بعد أن التعددية الدلالية للعبارات(البوليسيميا) جعلت المهمة مستحيلة:" كل لفظة تقابل خمسة أشياء في آن واحد، و لم أملك أية وسيلة لمقابلة المفردات ببعضها البعض"(49). لم ينشر أطروحتيه، وتخلى عن مشروع الكتاب في حدود 1954، و لم يصدر مقالات علمية على نطاق واسع خلال ست سنوات(50).

هوامش

1-هذا النص مأخوذ من:

Texto ! Textes & Cultures, Volume XX, 2 (2015)

2- أشكر صوفي ريفيي Sophie Revillet على هذه الترجمة لمخطوط باللغة الإنجليزية. لقد ود أستريد گيوم Astrid Guillaume وكلوتيلد لاندي Clotilde Landais وكيستوتيتس ناستروبكا KestutitsNastropka وفرانسوا راستي François Rastier وبيار سويگرس Pierre Swiggers ونانديج فيلدواشتر Nadège Veldwachter وطوماس فانكلوفا Tomas Venclova قراءة النص وتقديم اقتراحات. إني مدين لـــ فيطوطاص فيركو VytautasVirkau بالعديد من المعلومات الثقافية وبترجمات الوثائق الليتوانية.

3-1985-1986 : I, 12.

4- (LCVA 1934-1936
5- 1985-1986 : I, 12
6- Vytautodidžiojouniversitetas1931 : 59
7- 1985-1986 : I, 12
8- 1991c : 40
9- 1985-1986 : I, 12
10- (انظر گريماس 1943)
11- Keane 1992 : 267-268
12- 1991c : 40
13- 1991a : 44
14- LCVA 1936 : 66-74
15- LCVA 1936-1939 : 26
16- Fiorin 2013
17- LCVA 1936-1939 : 22
18- Greimas1973 : 7-8, 2004 : 48
19- LCVA 1936-1939 : 22.
20- 1985-1986 : I , 14-
21- 1985-1986 : I , 14 ; 1987c : 302
22- Ramuniené 2010
23- 2006 : 122
24- Chevalier avec Encrevé, éds.2006 : 122,210 ;Fryba-Reber 2013
25- Jaberg et Jud 1928-1937
26- 2006 : 122
27- 16fév. : 1989a استقيت المعلومات حول الدراسات التي تابعها گريماص بغرونوبل من لمبلان Lamblin (1987) والسجلات الجامعية المحفوظة في أرشيف قسم إيزر Isère (انظر البيبليوغرافيا).
28- Greimas, 1944, 1989a : 13fév. Keane1992 : 267-268
29- 1985-1986 : II, 23
30- Keane 1992 : 267-268 ; Greimas 1963 : 5
31- 1985-1986 : II, 22
32- Greimas1963 : 5
33- Greimas 1982
34- Bessat et Germi 2001, 2004
35- LCVA 1939-1940 : d. 38, pp. 192-193
36- 1958 : 22
37- Gaidis 2001 : 25 ; Leclère 2009
38-)Knezys 2005 : 11, 25
39- Berggren 2010, Clergerie 2009a, Quemada 2010, Greimas 1956-1957 : 16-19
40- LCVA 1939-1940 : d.40, pp.332-335 et d.41, p.13.
41- 1987b
42- 2006 : 125-126
43- Quemada 1993 : 52, 2010
44- Greimas et Matoré 1947 ; Greimas 1949a, 1952, 1955.
45- 1989b, 2006 : 125
46- Greimas et Matoré 1950 : 221
47- 1948c : 32[v.200 : 272-273], qui cite Balzac 1830[in 1935 : 359-360] ; v. aussi Greimas 2006 : 127 et Matoré 1951.
48- 1949b
49- 2006 : 127
50- un article paru tardivement survole un aspect sur l’art : Greimas et Matoré 1957.